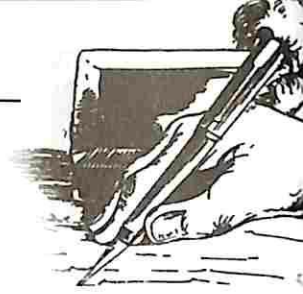

الجنين والأرض

بقلم : علي عبده النوبي

تهب نسمات رطبة ، تصافح الوجوه ، تداعب القلوب ، أسكنت رأسي للخلف ، أبحرت بين دروب الماضي بالخيال ، كنت طفلاً ، ألهو بالفقر ، أقفز دون شعور بين حلقاته ، كان أهل القرية نادراً مايعودون عبدالرحيم بالزيارة بسبب حالته المادية القاسية ، تأتي الأعياد والمواسم ، أجلس أمام البيت ، أرقب المارة ، لا يزورنا منهم إلا القليل ، أتوجه لأبي متسائلاً عن هذا النفور ، شرود عميق – صمت أبدي لا ينتهي ، يخرج. أفزعني صوت المذياع عن مطاردتي لظلال أبي ، والأغاني الوطنية تلهب الحماس ، تتخللها فواصل قصيرة نسمع خلالها جُملاً صغيرة عن العدو الذي سوف يلقى به في البحر . نصفق مثل الكبار في فرحة كبيرة ، دون أن نعي مضمون الكلام . في الأعياد دائماً أجد عمي عبد الستار متجهاً لمنزلنا ، يجلس ، يضع يده في جيبه ، يخرج نقوداً ورقية جديدة أحضرها من المصرف لهذه المناسبة ، أهنأ بها وأمرح ، شعرت أن يداً من الخلف تمتد نحوي لتنبهني لشيء ما ، من فضلك أغلق الشباك قليلاً .. حاضر ،مرة ثانية أسبح بالفكر كي أستكمل فصول الماضي ، حيث تضحيات أبي وأسرتي ، سوف يسعد كثيراً بتلك الهدايا الجديدة – التي اشتريتها لأجله ، وأعوضه عن آلام السنين الطويلة وكدح الليالي العجاف ، سوف أعرضه على أفضل الأطباء كي يستريح من الأمراض التي كتم أنينها بصدره أشياء وأشياء ، أحضرتها له سوف يسعد لها – فوداعاً لكل الجراحات ، وآهات الماضي ، وضعت رأسي من جديد مستسلماً للنوم العميق لم أصحُ إلا على أصوات تتعالى بفرحة الوصول . الكل يقفز بسعادة غامرة متحررة من قيود السنين وسلاسل الغربة . سوف أتمتع برؤية أهلي وعشيرتي – فتحت الباب ، قفزت شقيقتي بين يدي باكية لا تصدق . لحظات صعبة على الغرباء ،مضى خمس سنوات – أين أمي ، أين أبي ، أسرعت نحو غرفتهما . وجدت أمي وقد أوهنتها السنون – قامت تتحامل على نفسها فتحت ذراعيها لتأخذني بين أحضانها الحانية – سألتها عن أبي ، أدارت عينها نحو فراشه المرتب ، دُهشت لعدم وجود الصندل الخاص به أسفل السرير ، لعله وضعه في الطابق العلوي أو في أحد جوانب البيت – أعدت السؤال ..صمت !. قلت في نفسي قد يكون بالمسجد كعادته ذهب مبكراً انتظاراً للصلاة – أو لعله ذهب إلى بيت عمي عبدالستار كي يتفق على خطوبتي لابنته عزة ، الصمت يلف المكان ، لقد اشتقت لملامح الأرض في وجه أبي ، آه تذكرت لم أر بعد غرفة الاستقبال ، إنه هناك يريد مفاجأتي بشيء ما ، أسرعت وفتحت ما تبقى من زوايا الباب ، طالعتني صورة ضخمة لأبي مرسومة باليد ، ليس بها قسمات الأرض ولا صبرها ، بها إطار موشح بالسواد – أسفل الصورة كلمات باهتة متناثرة ، اقتربت منها وقلبي يرتجف وعيناي متصلبتان ، تحسست الحروف – العيون حُبلى بالدموع ، والرثاء جد قليل ، فلمن أحمل الأفراح وبمن أرى نشيج الأرض وصبرها.